بيت قطاوي فطلبت من هذه العائلة الكريمة أن تعد منزلها فأقام فيه اللورد مدة مكوثه في مصر. وبعد إتمام مهمته التي جاء لأجلها رحل إلى بلاده بعد أن أهدى صاحب الترجمة رسم الملكة فكتوريا مكبّرا ومكتوبا عليه هذه الكلمات: هدية تذكار لضيافة اللورد دوفرين». ولا أدري على وجه الدقة إن كان اللورد دوفرين غادر بيت قطاوي عائدا إلى بلاده قبل أيام أو أسابيع من وفاة يعقوب قطاوي (فالزيارة والوفاة حدثتا عام ١٨٨٣)، ولكنني أرجّح أن المسنات من نساء العائلة القادمة من حلب فكرن، وإن لم يُفصحن، أن قدم اللورد الإنجليزي كانت نحسا لا سعدا على البيت. وكان يعقوب بن يوسف بن إسحق صمبري قطاوي وصل إلى مصر من حلب في فترة ولاية محمد على وتولي أشغال الضَرْبَخَانَة (أي دار سك النقود)، وأمور المخابز وحلقات الأسماك والجمارك، ثم صار في عصر الخديوي عباس الأول شيخ الصيارفة في مصر، واحتفظ بمركزه في حكم سعيد وإسماعيل. والأرجح أن قطاوي كغيره من أبناء حلب المؤهلين لتبوء المراكز العليا في الدولة، كان يتحدث فضلا عن العربية وهي لغته الأم، اللغة التركية، لغة الدولة والإدارة في الإمبراطورية العثمانية. (يصف شارل ديديه في كتابه «ليالي القاهرة» الصادر في باريس عام ١٨٤٠ حفل ختان موسى الابن الأصغر ليعقوب قطاوي ـ وهو والد جوستاف الموصوف الاحتفال بختانه في كتاب مكاريوس ـ يقول ديديه إن كافة الحضور كانوا يرتدون الملابس المحلية ويتحدثون العربية أو التركية، لا أحد منهم يعرف الفرنسية، أما النساء فاحتفلن على طريقتهن الشرقية في الأجنحة الخاصة بهن حيث المطربة تحيي الليلة بالضرب على الدف والغناء.)

ونرجح أن يعقوب قطاوي احتفظ بملابسه التقليدية حتى رحيله وهو ما تظهره صورة له في السنوات الأخيرة من عمره: شيخ معمم، لحيته بيضاء قصيرة مشذبة، يرتدي قفطانا من الشاهي المقلّم يجمع طرفيه حزام عريض، وفوق القفطان جبة داكنة اللون سابغة فضفاضة واسعة الكمين تكشف أطرافهما عن كمي القفطان الأطول والأقل اتساعا.